

السلطان محمد الفاتح

السلطان الذي مهّد للسفن طريقاً



Joylino

السلطان محمد الفاتح

السلطان الذي مهّد للسفن طريقاً

تخيّل سفينة.

لها بدن ضخم، وسارية طويلة، وحبال سمكة.

والآن أخرج هذه السفينة من البحر. تخيّل أن تحتها تراباً بدلاً من الأمواج، وأمامها تلا يجب أن تعبره.

هل تستطيع سفينة أن تعبر فوق تلّ؟

قبل قرون، أمام إسطنبول، انطلقت سفن في رحلة كهذه تماماً.

كان صاحب هذا العمل الكبير السلطان محمد، ولم يكن عمره سوى واحد وعشرين عاماً.

ولكن لماذا أمر حاكم بأن تسير سفنه على البر؟

لنعرف الجواب، سنعود قليلاً إلى الوراء، إلى الأيام التي كان فيها طفلاً صغيراً.



في يوم ربيعي من عام ١٤٣٢، وُلد طفل في أدرنة. كان أبوه السلطان مراد الثاني، وسموه محمدًا.

كبر الأمير الصغير وتعرّف إلى الكتب. تلقّى دروسه على أيدي معلميه، فتعلّم أمور دينه ولغات مختلفة، وقرأ قصص أناس عاشوا في الماضي.

بين صفحات الكتب، كانت هناك بلدان بعيدة ومدن كبيرة وحكّام من عصور مضت.

كان أمام محمد عالم واسع ينتظر أن يكتشفه.

وذاّت يوم، سيّخذ في ذلك العالم قرارات مهمّة.

أما الآن، فكان عليه أن يتعلّم. حرفاً حرفاً، وصفحةً صفحةً...

بدأت رحلة حاكم سيترك أثراً في التاريخ بتلميذ يصغي إلى دروسه بانتباه.



أصبح محمد سلطاناً للمرة الأولى وهو في الثانية عشرة فقط.
كانت مسؤولية كبيرة جداً على هذا العمر الصغير. كانت الأخبار
تصل من أنحاء البلاد، والقرارات المهمة تنتظر من يتخذها.
مرّت أيام صعبة. وبعد مدة، عاد أبوه إلى العرش، ورجع محمد
إلى مانيسا.

واستمرّ وقت التعلّم بالنسبة إليه. كان سيكتسب الخبرة ويتعرّف
أكثر إلى شؤون الدولة.

وحين توفيّ أبوه عام ١٤٥١، أصبح سلطاناً من جديد.

هذه المرة كان في التاسعة عشرة.

وكان أمامه هدف كبير: فتح إسطنبول وجعلها عاصمة لدولته.



كانت إسطنبول تقع عند ملتقى قارتين. تحيط بها البحار، وتحمي جانبها المطل على البر أسوار قوية.

وصلت جيوش كثيرة إلى هذه الأسوار من قبل، ثم عادت من دون أن تتمكن من دخول المدينة. بدأ محمد الاستعدادات.

ارتفعت قلعة روملي على شاطئ البوسفور. وُجهزت السفن في أحواض بنائها، وصب الصّناع مدافع كبيرة. وتداخلت أصوات المطارق.

طق! طق! طق!

كان لكل شخص عمل في هذه الاستعدادات الكبيرة. فهذا يحمل الحجارة، وذاك يعمل بالحديد، وآخر يبني السفن.

وبجهود آلاف الناس، أخذ السلطان الشاب يقترب من هدفه خطوة بعد خطوة.



في شهر أبريل من عام ١٤٥٣، وصل الجيش العثماني إلى أسوار
إسطنبول.

كانت الأسوار تبدو أعلى حين تُرى عن قرب.
بدأ الحصار، ودوّت أصوات المدافع. وكان المدافعون عن المدينة
يصلحون الفتحات التي تظهر في الأسوار.
مرّت الأيام، وظلّت الأسوار صامدة.

وكان في البحر عائق كبير أيضًا. فقد امتدّت سلسلة سميكة عبر
مدخل القرن الذهبي، ولم تستطع السفن العثمانية تجاوزها.
جدران حجرية على البر، وحلقات حديدية في البحر...
كان جيش السلطان محمد أمام عائقين كبيرين.
وللوصول إلى الفتح، كان لا بدّ من إيجاد طريق جديد.



ولم تكن الأمور تسير دائماً كما أرادوا.

ذات يوم، عبرت سفن تحمل المساعدة إلى المدينة من أمام الأسطول العثماني، ووصلت إلى القرن الذهبي. وكان ذلك صعوبة كبيرة للجيش الذي يواصل الحصار.

كانت المشكلة واضحة أمام محمد: يجب أن تدخل سفنه هي أيضاً إلى القرن الذهبي.

السلسلة تغلق طريق البحر.

فماذا عن طريق البر؟

أمر السلطان محمد بنقل جزء من الأسطول براً.

ستعبر السفن فوق التلال، ثم تُنزل إلى الماء من جديد في الجهة الأخرى.

والآن، كان يجب تحويل هذه الخطة الجريئة إلى حقيقة.

جُهزت الحبال والزلاجات، واستعدت الأيدي القوية للعمل.



حلّ الليل.

وُضعت السفن على الهياكل الخشبية التي أُعدّت لها. شُدّت الحبال السميكة، وبدأ الناس يسحبون معاً.

ببطء في البداية...

ثم مسافة أخرى...

كانت سفينة ضخمة تتقدّم فوق التراب!

كان الخشب يصرّ، والأقدام تثبت على الأرض. الجميع يعمل لهدف واحد: إيصال السفن إلى الماء خلف التل.

سفينة، ثم أخرى...

وفي صباح ٢٢ أبريل، كان جزء من الأسطول العثماني داخل القرن الذهبي.

كانت السلسلة لا تزال في مكانها.

لكن السفن أصبحت في الجهة الأخرى منها.

فالتريق الذي أُغلق في البحر، أمكن تجاوزه عبر البر.



كان وصول السفن إلى القرن الذهبي نجاحًا كبيرًا. لكن إسطنبول
لم تكن قد فتحت بعد.
استمرّ الحصار.

ومع امتداد الأيام، ازداد التعب. كان الناس داخل المدينة
وخارجها يعيشون أيامًا صعبة.

واصل السلطان محمد الاستعداد مع قادته. فدرسوا حال الأسوار،
ونظّموا مهام الجيش.

فالخطة الكبيرة لا تنجح إلا إذا نُفذت بعناية.

ومع اقتراب نهاية مايو، اكتملت الاستعدادات للهجوم الكبير
الأخير.

كان محمد وجيشه سيتوجّهون مرة أخرى نحو الأسوار التي وقفوا
أمامها أسابيع طويلة.
اقترب اليوم المنتظر.



صباح ٢٩ مايو ١٤٥٣...

بدأ الهجوم الكبير الأخير.

وبعد صراعٍ طويلٍ وشاقٍ، تمكّن الجنود العثمانيون من اختراق الدفاعات. وفتحت إسطنبول.

كان السلطان محمد في الحادية والعشرين فقط.

ومنذ ذلك الحين، سيُذكر اسمه مع هذا الإنجاز الكبير:

السلطان محمد الفاتح.

تركت سنوات الاستعداد، والقرارات الجريئة، وجهود آلاف الناس أثراً في التاريخ.

لكن الحرب جلبت الألم إلى المدينة أيضاً. فقد أناس حياتهم، وتضررت بيوت.

وأصبح أمام الفاتح واجب جديد: إعادة الحياة إلى إسطنبول، والنهوض بعاصمته من جديد.



ومع الوقت، بدأت أصوات أخرى ترتفع في إسطنبول.
مطارق الصنّاع، وحركة الأسواق، وأصوات التلاميذ وهم
يدرسون...

عمل الفاتح على إصلاح المدينة وتطويرها. وفتحت المدارس،
ودعم العلماء والفنانين.
وكان هو أيضاً يواصل التعلّم. اهتمّ بالكتب، وتحدّث مع العلماء،
وكتب الشعر.

حكم سنوات طويلة بعد الفتح. وحين توفي عام ١٤٨١، ترك
وراءه دولة تنمو وعاصمة تزدهر من جديد.

أصبح محمد الصغير، الذي وُلد في أدرنة، السلطان محمد الفاتح الذي
نقرأ عنه في كتب التاريخ.

ولم تكن في قصته سفن تسير على البر فحسب، بل كانت فيها كتب
مفتوحة أيضاً.



مرّت القرون.

ولا تزال الأمواج تتحرّك عند شواطئ إسطنبول، والنوارس تحلّق فوقها، والقوارب تعبر القرن الذهبي.

وحين تنظرُ إلى تلك المياه اليوم، يمكنك أن تتخيّل السفن التي وصلت يوماً بعد أن عبرت التلال.

الجبال السميكة، والزلاجات التي تصرّ، وآلاف الناس يعملون معاً...

والسلطان الشاب الذي يقودهم.

في ذلك اليوم، عادت السفن إلى الماء. ومضى محمد نحو الاسم الذي سيعرفه به التاريخ:

السلطان محمد الفاتح.

وكُلِّما رُويت حكاية إسطنبول، ظلّ اسمه حياً فيها.

